الأهرام

المصدر : الاهرام

التاريخ : ٣ اكتوبر ١٩٩٨

نصر أكتوبر ..

فى عيون أسرى الحرب الإسرائيليين

د.ابراهيم البحراوى

رئيس شعبة الأبحاث الاسرائيلية
جامعة عين شمس

بعد ربع قرن من تجربة قيامى باجراء سلسلة من الحوارات مع أسرى الحرب الاسرائيليين بالسجن الحربى المصرى فى اكتوبر ١٩٧٣ يصبح من الواجب علينا تأمل ناتج هذه الحوارات ليس فقط من باب الاحتفال بذكرى مجيدة فى حياة مصر والعرب أجمعين، بل من قبيل الدراسة المتأنية لتجارب الماضى ودروسه المستخلصة لخدمة سلامة الأرض المصرية وضمان الأمن القومى لمصر فى مواجهة أية نوايا عدوانية مستقبلية محتملة من جانب انصار ثقافة العدوان والتوسع والذين يعملون على زيادة تعدادهم فى المجتمع الاسرائيلى خاصة من اتباع اليمين الدينى المتطرف ليصلوا يوما من خلال هذه الزيادة العددية بتشجيع التناسل الى الحصول على الأغلبية اللازمة للحكم والسيطرة على الترسانة النووية ليضعوها فى خدمة أساطيرهم الحالمة بالتوسع وبناء امبراطورية مترامية الأطراف تكتسب مبررات وجودها من نصوص الكتب الدينية.

وكم شعرت باتياح عميق قبل كتابة هذا المقال عندما طالعت بالأهرام فى ١٩٩٨/٩/٢٧ تصريحا للدكتور أسامة الباز مستشار رئيس الجمهورية منقولا عن صحيفة الأيام البحرينية يؤكد فيه قدرة مصر على ردع اسرائيل وقائلا بالحرف إن اسرائيل يجب ان تعلم أن مصر ليست هينة وأنها لن تستطيع ردعنا وتحذرا من خطورة البرنامج النووى الاسرائيلى معلنا أن مصر تمتلك الوسائل الكفيلة بتحقيق ردع اسرائيل عن العدوان.

لقد كان مبعث ارتياحى لهذا التصريح امران. الأول أن قيادتنا فى أعلى مستوياتها واعية باتجاهات الخطر واحتمالاته فى الوقت الحاضر رغم أن اليمين الحاكم اليوم فى اسرائيل كما يمثله حزب الأغلبية ليكود لايقاس تطرفه على ضراوته التى نراها بجنوح التطرف الدينى الاسرائيلى الذى يمكن أن يحقق اغلبية برلمانية للسيطرة على الحكم فى غضون عشرين عاما من الآن.

والثانى أن هذا التصريح من جانب الدكتور الباز يتوافق مع الخلاصات التى انتهت اليها حواراتى مع الأسرى الاسرائيليين من ضباط ينتمون الى كافة أنواع الأسلحة البرية والجوية وهى الخلاصات التى تؤكد أن الضمان الوحيد لسلامة الأرض المصرية وحمايتها من الأطماع التوسعية هو أن تمتلك مصر قوة الردع العسكرية المناسبة للزمن الحاضر والمستقبل والقادرة على تحييد ترسانة اسرائيل النووية.

واذا كنت قد اشرت فى صدر المقال الى نوع القوى المتطرفة التى يجب علينا التحوط من الآن لامكانية صعودها باغلبية جارفة الى الحكم فى اسرائيل فان الحوارات مع الأسرى الاسرائيليين قد اوضحت لى على نحو كاف أن الجمهور العادى فى اسرائيل حتى ذلك البعيد عن التطرف الدينى والأطماع التوسعية الايديولوجية لن يمانع فى حالة تحقق هذه الأطماع دون خسائر جسيمة من التوجه الى تأييدها ودعمها والتمسك بالمكاسب التى تحققها فى الأرض العربية عامة والمصرية خاصة اعتبارها اضافة الى رصيد معاشه وغنيمة سهلة الهضم تشبع احساسه بالسيطرة والتفوق وتضخ موارد اقتصادية اضافية الى حياته فلقد كانت مجموعة الأسرى التى حاورت أفرادها تميل الى استخدام المنطق البراجماتى اى المنفعى العملى فى طروحها حول تفضيل البقاء فى سيناء مادام ذلك البقاء مجلبة للمنافع وخاليا من الضرر الجسيم.

واذا عدنا الى الماضى ربع قرن من الزمن الى مشهد السجن الحربى المصرى وساحته مكتظة بالأسرى الاسرائيليين ورجعنا الى تسجيلات الحوار معهم ولمسنا مافيها من كمد وحزن ولوعة على انهيار اسطورة التفوق العسكرى الاسرائيلى المطلق وعلى فقد الأصدقاء الذين سقطوا صرعى وانتبهنا الى ماتحتويه تعبيرات هؤلاء الأسرى من احساس بالصدمة الحادة لاكتشافهم صورة مختلفة للمقاتل المصرى عما تصوره لهم اجهزة التوجيه المعنوى الاسرائيلية لأدركنا صحة الخلاصة من كل هذه الحوارات وهوأن قدرة مصر على توجيه صدمة جارفة فى اكتوبر ١٩٧٣ هى وحدها التى هيأت الجماهير الاسرائيلية بمنطق البقاء فى سيناء خير لاسرائيل من السلام بدون سيناء وهى الفكرة التى رسخت فى نفوس هذه الجماهير تلك التشكيلة المختلطة من الأطماع الايديولوجية والمنافع المحققة الخالية من الضرر الجسيم قبل حدوث الصدمة العسكرية المصرية.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ولعلنا اذا ماتوقفنا لاسترجاع بعض مادار فى تلك الحوارات لتجسدت أمامنا الخلاصة التى تعنينا فى التخطيط للمستقبل.

أ ـ عندما جلست الى المجموعة الأولى من الضباط الأسرى اكتشفت من ضحكاتهم وأساريرهم أنهم فى حالة ابتهاج واتجه ذهنى الى أن السبب فى ذلك يرجع الى حسن المعاملة التى يلقونها من الجيش المصرى فى الأسر.. وعندما سألتهم عن نوع المعاملة أجابوا بأنها لائقة طبقا للاتفاقيات الدولية وعدت أسأل هذه المعاملة هى السر وراء حالة الابتهاج التى تسودهم.. فجاءت الاجابات بمبادرات متباينة مثيرة للدهشة.. فقد اجمعوا على أن السبب فى ابتهاجهم هو أنهم مازالوا على قيد الحياة وأنهم لم يلقوا مصير زملائهم الذين التهمتهم ماكينة الحرب المصرية وعندما وجهت مزيدا من الأسئلة حول هذا الاحساس قال أحدهم «نعم أنا سعيد لأننى نجوت من الموت ومازلت حيا فانا مازلت شابا صغيرا ولم آخذ بعد نصيبى من الحياة» وتكررت نفس الحالة مع سائر المجموعات مما أكد انها حالة عامة بينهم.

ب ـ عندما سألت عن مشاعرهم تجاه زملائهم الذين سقطوا صرعى.. حلت مشاعر الكآبة والكمد على الجلسة الأولى وسائر الجلسات وتصاعدت اصوات تعبر عن الحزن العميق.

ج ـ عندما سألت عن كيفية سقوطهم فى الأسر رغم مايشاع عن تفوقهم العسكرى وانتمائهم لجيش لايقهر.. كشفت الاجابات عن حالة صدمة لاكتشافهم ان العدو المصرى أفضل أداء مما توقعوا جميعا على اختلاف اسلحتهم . قال الطيارون والملاحون الجويون إن طائراتهم اصيبت قبل أن يتمكنوا من القاء حمولاتهم من القنابل وان المفاجأة حالت بين زملاء لهم وبين القفز من الطائرات المنفجرة.. وقالوا ان اجهزة اللاسلكى المفتوحة بين القواعد الأرضية وبينهم كانت تحمل عبارات يصرخ بها جميع الطيارين فى حالة هستيرية وهى «ان الصاروخ المصرى يتعقبنى» «اننى لاأستطيع الفرار من الصاروخ» .

«لقد انفجرت طائرة داود» «أن طائرة يهوشع تلتهب فى الجو»

«سأقفز من الطائرة فالصاروخ متجه الى»

واذا ماعلمنا أن سلاح الجو الاسرائيلى يعتبر فى خطة الدفاع الاستراتيجى الرادع الأول الذى يعتمد عليه فى وقف وتدمير أى قوات عربية مهاجمة لحين تعبئة قوات الاحتياط لاكتشفنا مدى الصدمة على المستوى الشخصى والمستوى العام التى نزلت بهؤلاء الأسرى.

وقال ضباط وجنود خط بارليف عن ملابسات وقوعهم فى الأسر«لم يكن فى الهجوم المصرى على مواقعنا أية مفاجأة على مستوى وحداتنا .. فلقد انذرتنا القيادة منذ الثامنة صباحا يوم السادس من اكتوبر برفع درجة الاستعداد الى الحد الأقصى وتوقع هجوم مصرى. وعندما وقع الهجوم كنا مستعدين فى نقاطنا ولكن المصريين لم يوقفهم شىء لاالقذائف والألغام ولاالرشاشات كانوا يصيحون ويهجمون حتى اقتحموا علينا المواقع ولم يكن أمامنا الا التسليم».

وهنا لابد من الاشارة الى أن خطة الخداع الاستراتيجى المصرية والسورية نجحت فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو اقناع القيادة العسكرية الاسرائيلية العليا بعدم تعبئة قوات الاحتياط أما القوات الاسرائيلية على خط القناة فقد صدرت اليها أوامر الاستعداد اعتمادا على مناعة الحصون ومساندة السلاح الجوى وهو مالم ينفع فى شىء.

ـ عندما سألت بعد ذلك«ألم يكن الأفضل لكم أن تقبلوا نداءات العالم والرئيس المصرى بالانسحاب مقابل السلام بدلا من التعرض للموت والأسر؟ جاءت الاجابات جميعا تقول«ولماذا كان يجب أن نقبل ذلك الانسحاب .. فلقد كنا فى الوضع الأفضل ولم تكن لديكم القدرة على طردنا من مواقعنا»

وكانت تلك الاجابة على السنتهم خير تحية لأبطالنا المقاتلين ولأرواح شهدائنا فالخلاصة الواضحة انه لو لم تقع الصدمة ولو لم تتحطم الحصون ولو لم يقعوا فى الأسر لما كان هناك داع من وجهة نظرهم للانسحاب من سيناء حتى مقابل السلام. ولعل الخلاصة المتصلة بالمستقبل تكون الآن على أعلى درجة من الوضوح فلاضمان لسلام لاتحميه قوتنا ولارادع للعدوان سوى قوتنا على الردع.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية